نورس للترجمة

NORS FOR TRANSLATION

نورس للترجمة تقدم ترجمة لمقال

معسكر اعتقال لعشرة ملايين إيغوري، صحيفة ميدوزا تزور الدولة البوليسية الفاسدة للصين

سوق الإيغور في المدينة القديمة لكاشغر، في ٢٨ من تموز عام ٢٠١٤

في ٩ سبتمبر / أيلول نشرت هيومن رايتس ووتش تقريرا يفصّل اضطهاد السكان المسلمين في منطقة شينجيانغ (سنجان أو تركستان الشرقية) الإيغورية ذاتية الحكم في الصين. ويصف التقرير عمليات اعتقال واسعة النطاق لأفراد الإيغور[1] في المنطقة من قبل السلطات الصينية الذين يضعون المعتقلين في السجون وما يسمى بمخيمات إعادة التأهيل. لقد وقع الملايين من الناس في المنطقة تحت المراقبة المستمرة لنظام المراقبة بالفيديو الذي تديره الدولة، ويعتمد وضعهم الاجتماعي وحتى مسارهم العام في الحياة على النقاط المكتسبة في نظام "الإئتمان الاجتماعي" (بعض الوكالات تسميها نظام التقييم الاجتماعي وهو نظام الكتروني للمراقبة والتقييم الحكومي يعتمد على الهواتف الذكية والخوارزميات المعقدة لمعاقبة الأفراد ومكافأتهم ومراقبتهم في جميع مناحي حياة الفرد). وفقا لهيومن رايتس ووتش فإن عمليات القمع على هذا النطاق لم يسمع عنها في الصين منذ الثورة

الثقافية. وفقا لصحيفة نيويورك تايمز يفكر الرئيس الأمريكي دونالد ترامب في فرض عقوبات ضد الصين على أنها شكل من أشكال الانتقام (الرد)، لكن الوضع في شينجيانغ لم يتم كشفه بشكل كامل، ربما لأن السائحين والصحفيين نادراً ما يصلوا إلى هذه المنطقة. هنا تقوم ميدوزا بنشر تقارير من صحفي ومسافر روسي نجح في دخول شينجيانغ خلال فصل الصيف وملاحظة كيف أن التقنيات الجديدة المستخدمة هناك تسهّل المراقبة الكلية والفصل والتمييز. لقد اختار مؤلف هذه المقالة أن يبقى مجهولاً لحماية سلامته وسلامة الأشخاص الذين قابلهم. لذلك تم تغيير بعض الأسماء والتفاصيل غير المهمة في هذه القصة.

الجزء الأول

الحدود

كان ذلك قبل ١٥ سنة عندما وصلت إلى ممر إركيشتام الجبلي لأول مرة، وهو معبر حدودي يفصل قيرغيزستان من الصين. في ذلك الوقت كنت أسافر باستيقاف السيارات (ايقاف السيارات العابرة لنقلي مجاناً)، وكنت السائح الوحيد في نقطة التفتيش بأكملها، وهي عبارة عن ثكنة طويلة على شكل نصف دائرة، مع سياج مهترئ مصنوع من الأسلاك الشائكة. تم تقسيم الثكنة إلى نصفين عن طريق حاجز العارضة ومكتب يشغله جندي قيرغيزي نائم. ارتفاع التضاريس هناك يجعل من الصعوبة التنفس. كان من الصعب إجراء محادثة أيضا، فالرياح عصفت عبر الحدود وأخمدت صوت كلماتنا. لقد كان مكاناً محظوراً إلى حدٍ ما بجوار طريق متهالك يتألف من مسارين يؤديان إلى منطقة شينجيانغ، وهي منطقة جبلية واسعة مليئة بالأشواك التي تضم أيضاً تاكلامكان، وهي إحدى أكبر الصحاري الرملية في آسيا. على الجانب الآخر مباشرة من مكتب الجندي بدأت دولة جديدة.

وقفت صفوف الشاحنات على جانبي البوابة التي تقسم الثكنة. يحمل البعض السلع الاستهلاكية من الصين إلى آسيا الوسطى ثم إلى روسيا، ويحمل آخرون بضائع من مكائن قَطْع المعادن (مخارط)

تركت في المصانع السوفيتية القديمة من طاجيكستان وقرغيزستان إلى الصين. كان الجميع يعرفون أي جانب يتطور بشكل أسرع، لكن علامات التقدم كانت بالكاد ملحوظة حتى في الجانب الصيني، باستثناء الأسلاك الشائكة الأقل اهتراء وحقيقة أن الجنود جالسون في كشك جديد مصنوع من الزجاج والبلاط.

في عام ١٩٣٥ نشر بيتر فليمنج وهو مراسل سياسي لصحيفة التايمز (وإلهام محتمل للقب شخصية شقيقه الأصغر إيان فليمنج مؤلف سلسلة روايات جيمس بوند) كتاباً رائعاً عن أسفاره في هذا المجال، أخبار من تارتاري (بلاد التتار الكبرى): رحلة من بكين إلى كشمير. من الصعب تخيل عنوان يحقق مفارقة أكثر، حيث أن أكبر منطقة ذاتية الحكم في الصين تحتل سدس مساحة البلاد وفقا لفليمنج على وجه التحديد، فإسم تارتاري الذي استخدم حتى القرن التاسع عشر لجميع الأراضي الممتدة من بحر قزوين إلى الهند قد تمت إزالته ولا يُستخدم وغامض. نجح القليل من الغربيين في شق طريقهم إلى هنا، وتصل أخبار أسفارهم إلى العالم على مدى أشهر، هذا إذا وصلت أصلاً.

تعني كلمة شينجيانغ في اللغة الصينية حدوداً جديدة أو سيادة جديدة. وقد سكن الإيغور منذ العصور القديمة في هذه المنطقة، التي احتلتها الصين لأول مرة في القرن الثامن عشر، والإيغور جماعة عرقية تركية أقرب إلى شعوب آسيا الوسطى في اللغة والملابس من الشعوب الموجودة في الصين. مع امتداد طريق الحرير عبر الصحراء، انضمت شينجيانغ إلى سلسلة من المدن التي كانت بمثابة واحات منفصلة عن بعضها البعض في رحلات القوافل التي تستمر لعدة أيام. سمحت هذه المسافات لسكان هذه المنطقة بما في ذلك الإيغور والقرغيز والكازاخيين والتبتيين والروس بالعيش في سلام نسبي. ووفر قرب الممر التجاري العظيم الروابط الثقافية مع الغرب والهند والصين وبلاد فارس. كانت هذه المنطقة التي كانت تحمل في ذلك الوقت اسم تركستان الشرقية، كانت قد خاضت صراعاً على مدار قرون مع بكين، التي حاولت بانتظام ضم المنطقة على الرغم من أنها

كانت بعيدة جداً، على سبيل المثال تبعد عن بكين مرة ونصف المسافة من بغداد. كما عانت تركستان الشرقية من توترات منتظمة مع المناطق المجاورة الأخرى.

من وقت إلى آخر اندلعت الثورات والحروب الأهلية فيها وحولت المنطقة إلى حمام دم. في بعض الأحيان تتقاطع مصالح القوى العظمى الأخرى هناك. ولهذا السبب ظهرت تركستان الشرقية في افتتاحيات الجرائد، لأول مرة خلال اللعبة الكبرى (هو مصطلح يُطلَق على التنافس الاستراتيجي والصراع الدبلوماسي والسياسي بين بريطانيا وروسيا على منطقة آسيا الوسطى في القرن التاسع عشر) عندما توزعت الحدود بين الصين وروسيا والإمبراطورية البريطانية على جبال بامير، ثم في ثمانينات القرن الماضي عندما دعمت الصين المجاهدين الأفغان في الحرب ضد الاتحاد السوفييتي. غير أن تركستان الشرقية دخلت في فترة من الضبابية بعد احتلال الصين النهائي للمنطقة في عام ١٩٤٩.

كاشغر مدينة اقليم شينجيانغ الأقرب إلى الحدود القرغيزية، بدت في عام ٢٠١٣ على أنها حفرة مهجورة في الأرض. واستقر السياح الذين زاروا المدينة في مناسبات نادرة في فندقين يقفان على رفات قنصليتين أجنبيتين أغلقتا في عام ١٩٤٩، أحدهما روسية والأخرى بريطانية. كانت المدينة المحيطة تتألف من مجمعات سكنية صينية متطابقة جديدة ومباني حكومية فاخرة. بُني تمثال ماوتسي تونغ في عام ١٩٦٨ في ذروة الموجة السابقة من الاضطرابات الإيغورية، مرتفعة فوق الساحة الرئيسية. إنها واحدة من أكبر التماثيل لماو في الصين. وراء التمثال كانت الحفارات تسحق مجموعة هائلة من المتاريس إلى قطع.

المدينة القديمة في كاشغر في ٣١ من تموز عام ٢٠١٤

سوق المواشي المعاد افتتاحه مؤخراً في المدينة القديمة في كاشغر، في ٢٧ من تموز من عام ٢٠٠٩

سوق الحدادين في المدينة القديمة، ١٨ من أبريل عام ٢٠٠٩

استغرق الأمر مني يومين لأدرك أن ما كانوا يدمرونه لم يكن متراساً، بل جدار المدينة القديم الذي كان يفصل كاشغر عن المدينة القديمة. في البلدة القديمة عاش الناس ليس فقط من خلال تقاليدهم الخاصة ولكن من خلال إحساسهم بالزمن، حيثما كان الناس الصينيون العاملون في بكين ينامون لساعات، حينها كان هؤلاء في وسط المدينة القديمة الإيغورية يجلسون لتناول وجبة العشاء. تخرج حشود الناس ببطء من المسجد الرئيسي، حيث يسيروا على طول الأزقة الضيقة حول الساحة الرئيسية. يجلس الناس بتأني على الطاولات التي تقف على طول الطريق أو يسيرون إلى السوق الليلي، الذي تطفو فيه سحابة من دخان الطبخ ورائحة الخبز المفرود الطازجة الشهية. كان الرجال يرتدون ثياباً وأحذية عالية للركب وقبعات طويلة مبطنة بالفراء ولهم لحى طويلة. تصبغ النساء حواجبهن وكان الرجال يمتلكون سكاكين معلقة في أحزمتهم، وقد تم إنتاج هذه السكاكين التي تُعرَف بالباشية الشهيرة في مدينة يانجيسار المجاورة، التي كانت تُباع فيها السيوف منذ قرون إلى القوافل التي تمر عبر طريق الحرير. في سوق المدينة الضخم يشتري الناس السجاد والأغنام والسحالي أو الثعابين المحنطة. في الشوارع يحلق الحلاقون زبائنهم في العراء والخيّال يثبت للخيول الحدوات

بالمسامير المصنوعة لتوها في ورشة العمل المجاور. هنا كانت الحياة تفور وتغلي، تلك الحياة كما وصفها فليمنج وكما وصفها المستكشفون الكبار قديما من قبله.

كان الوصول إلى كاشغر في وقت مبكر من المزاد مثل السقوط فجأة في ألف ليلة وليلة، بل كانت حياة جديدة تنبع من جميع الجهات، ومبنى البلدية الصينية التي كانت تقع في السابق على أطراف المنطقة، أنشأت الآن سوراً أحاط المباني القديمة. تجولت هنا في ليالي غير مقمرة تحت مئات الأهلّة التي تزين المساجد، أدركت أنني كنت أرى كل هذا للمرة الأخيرة، وفوجئت بالصبر الذي واجه الإيغور به الاضطراب القادم. كانت القوات الصينية تغير الحياة اليومية بشكل كبير تحت سلطة الاحتلال القسري للشرطة في الوقت نفسه في التبت المجاورة.

ومع ذلك فإن المقاومة لم تنتظر طويلاً.

في عام ٢٠٠٩ حاولت الشرطة تفريق حشد من الناس تجمعوا في أورومتشي عاصمة شينجيانغ للاحتجاج على قتل العمال الإيغور في جنوب الصين. تحولت هذه الاضطرابات إلى مذابح، وقُتِل ١٩٧ شخصاً، معظمهم من قومية الهان الصينية. ألقت السلطات القبض على آلاف المتظاهرين، وحُكم على ٣٠ منهم على الأقل بالإعدام رمياً بالرصاص. لجأ بعض الإيغور رداً على ذلك إلى أعمال إرهابية بدائية ومنظمة بشكل سيء ولكنها مستمرة بانتظام.

مظاهرة في أورومتشي، في ٧ من تموز عام ٢٠٠٩

إيغوريون يبحثون عن أقرباء مفقودين في كاشغر، ٣ من آب عام ٢٠٠٩

في عام ٢٠١٠ ألقى رجل وامرأة القنابل على حشود في مدينة أقسو مما تسبب في قتل سبعة أشخاص خمسة منهم كانوا ضباط شرطة. بعد عام واحد سيطر ١٥ شاباً مسلحين بالسكاكين على مكتب الشرطة في هوتان للاحتجاج على حظر ارتداء بارانجا وهي الملابس النسائية التي تماثل البرقع (حجاب شرعي تراثي كان منتشراً في آسيا الوسطى قديماً). وقتل جميع المهاجمين مع اثنين من موظفي الشرطة. في يوليو ٢٠١١ تسببت سلسلة من الانفجارات في كاشغر في مقتل ١٠ أشخاص. قُتل ثلاثة وثلاثون آخرون في هجوم بسكين على محطة قطار في كونمينغ في عام ٢٠١٤. وفي نفس العام تعرضت القنصلية الصينية في قرغيزستان للهجوم، واستُهدف مزار في بانكوك يحظى بشعبية بين السياح الصينيين.

بعد ذلك وصلت عمليات القمع في شينجيانغ المستوى الذي دفع الشعب الإيغوري للانضمام إلى الجماعات الإرهابية الدولية. في مقابلة نادرة مع وكالة أسوشيتد برس صرح مقاتلون من الإيغور الذين استقروا في تركيا بعد مشاركتهم في الحرب السورية إنهم لا يهتمون بالجهاد هناك ولكنهم يكتسبون الخبرة في المعركة التي يمكنهم تطبيقها خلال الصراعات الأخرى في بلدهم. بعيداً عن زملائهم من مقاتلي الدولة الإسلامية درسوا كتابات الصهاينة على أمل تطبيق التجربة اليهودية في محاولاتهم الخاصة في تحقيق الاستقلال. على أية حال فإن الحزب الإسلامي التركستاني الذي جند ما لا يقل عن ألف مقاتل لإرسالهم إلى سوريا يُعتبَر الآن من قبل أغلبية الدول الغربية منظمة إرهابية.

سرعان ما أصبح هذا الوضع مفيداً تماماً للصين التي انضمت علناً إلى الحرب العالمية على الإرهاب في عام ٢٠١٤.

الجزء ٢

الصمت

خلال كل هذه السنوات نادراً ما ظهرت معلومات من كاشغر، بعد العنف الذي حدث في أورومتشي تم قطع خدمة الإنترنت لمدة عام كامل في جميع أنحاء شينجيانغ وتكتمت السلطات الصينية عن الأنباء حول الهجوم الإرهابي في أقسو ومنعت من انتشارها حتى داخل الصين. وكما كان الحال من قبل كان السياح بالكاد يزورون شينجيانغ، ولكن بالنسبة لعدد قليل من المغامرين الذين كانوا يأملون في دخول التبت التي أُغلِقت في وجه الأجانب، والرياضيين الذين سافروا بالدراجات في الصحراء أو عبروا أنهار شينجيانغ الخطرة في محاولة للحصول على فكرة عما يحدث، قابلت العديد من هؤلاء الزوار.

في عام ٢٠٠٣ أخبرني أحد الرياضيين عن رجل قرغيزي قابله في ينينغ (غولجا) أقسم أنه شاهد إعدام جماعي بالرصاص في كاشغر. وقد وصف بالتفصيل كيف أن الشاحنات العسكرية كانت تنقل الجثث بعيداً "تقطر الدماء منها على الطريق". حتى أنه أخذ الرياضي إلى المكان الذي حدث فيه هذا الأمر. بعد عدة سنوات سمعت مجموعة مختلفة من السياح القصة نفسها من أحد سكان كاشغر. وفي وقت لاحق في إحدى القرى التقوا بمجموعة من ضباط الشرطة الإيغور، وبعد مرور عام من هذا اللقاء سمعوا لدى عودتهم إلى كاشغر أن جميع معارفهم قد تعرضوا للطعن حتى الموت على أيدي أفراد من الجماعات الإسلامية المسلحة الذين أطلقت عليهم السلطات النار بعد ذلك.

في عام ٢٠٠٧ ظهرت شينجيانغ على التلفزيون الروسي للمرة الأولى والأخيرة في هذا القرن، حيث ظهر أربعة من المشاركين الستة في رحلة القوارب التي قادها سيرغي تشيرنيك غرقوا في نهر يورنكاش. وقد حظيت القضية بدعاية واسعة النطاق، ومن الواضح أن الشرطة حققت في القضية،

وواصل الدليل الذي أظهر قضية تشيرنيك للإعلام مثل الأدلة الإيغوريين الآخرين، واصل الرد على الرسائل حتى عام ٢٠١٥. بعد ذلك انقطعت جميع خطوط الاتصال.

جنود صينيون يحيطون المسجد الرئيسي في كاشغر بعد موت إمامها، في ٣٠ من تموز عام ٢٠١٤

وفي نفس الوقت تقريبا بدأ مؤتمر الإيغور العالمي وهي منظمة للدفاع عن حقوق الإنسان مقرها ميونيخ في نشر تقارير مخيفة عن اختفاء الأشخاص في شينجيانغ. وأوضحوا أن الإيغور منعوا من الاتصال بأشخاص من خارج حدود المقاطعة حتى لو كان هؤلاء الأشخاص هم أقاربهم. توقف الأشخاص الواحد بعد الآخر عن الرد على الهاتف؛ قام الإيغور الصينيون بحذف أصدقاءهم الذين يعيشون في الخارج من قوائم الاتصال الخاصة بهم على WeChat، منصة الرسائل الصينية الأكثر شعبية. كان قد تم حظر WhatsApp و Facebook قبل عدة سنوات، ولكن الآن يواجه أولئك الذين يستخدمون هذين التطبيقين التهديد بالسجن.

في ذلك الوقت لم تطبق هذه القواعد إلا على المكالمات الصوتية والدردشات المكتوبة، وكان بعض الآباء يتحدثون مع أبنائهم الذين يدرسون خارج الحدود عبر الدردشات المرئية، وكلماتهم المنطوقة تختلف بشكل حاد عن الرسائل التي يعرضونها في نفس الوقت على قطعة من الورق تم تعليقها

على الكاميرا. تمكن أحد سكان شينجيانغ من الاتصال من خلال مكالمات الفيديو المدمجة في ألعاب الفيديو، ومن ثم ينقطع الاتصال. أحد أصدقائي وهو سائق دراجة ألماني ذهب إلى شينجيانغ في خريف عام ٢٠١٦، قال إن مدينة هوتان بدت له "مشبكة بالكامل في الأسلاك الشائكة". كما تغيرت الخطابات الرسمية، حيث في بكين لم يعد المسؤولون يقولون أن المعارضة كانت تتكون من عدد صغير من المتطرفين. وقال مسؤول حزبي "من المستحيل القضاء على الأعشاب الضارة واحدة تلو الأخرى، نحن بحاجة إلى مواد كيميائية يمكنها التعامل معها جميعًا في وقت واحد".

قبل بضع سنوات ظهرت كاميرات فيديو صينية في التبت قادرة على إرسال رسائل الدولة حول تحركات أشخاص معينين مستهدفين للمراقبة. بدت وكأنها كرات على حجم رأس إنسان، وكانت مجهزة بـ "عينين". يعتقد أصدقائي التبتيين أن تصميم المجسم كان متعمداً، وهو أسلوب تخويف متعمد. ولكن في شينجيانغ عندما أصبح تشن كوانجو المعروف باسم "قامع التبت" أمين الحزب الشيوعي المحلي، توسعت تكتيكات الشرطة بحيث أصبحت مخيفة حتى بالمعايير التبتية.

في واحدة من خطاباته الأولية، وعد رئيس الحزب الجديد بـ "دفن جثث الإرهابيين في بحر حرب شعبية لا حدود لها". في غضون ثلاثة أشهر بدأت الاعتقالات، وبحلول أبريل ٢٠١٧ كان يمكن قمع الفرد لعرضه التدين الزائد، أو للبس البارنجا، أو لإطالة اللحية، أو لارتداء ملابس تقليدية بشكل مفرط بشكل عام، أو لتعليم القرآن علانية، بل وحتى على تسمية الأطفال بأسماء عربية. وتوجهت الطلبات إلى الكوتا (نظام محاصصة) المطلوبة من الاعتقالات إلى رجال الشرطة المحليين، وفي بعض المراكز السكانية بلغت هذه الأرقام ٤٠ في المائة من السكان. أولئك الذين قاوموا تم إرسالهم إلى "معسكرات إعادة تأهيل (التثقيف)"، التي يبدو أن بواباتها المحصنة والجدران السميكة التي يعلوها أسلاك شائكة تنتشر خارج الصحراء والتي كانت دائما تحت حراسة مشددة. عندما بدأت مصادر الإيغور تتحدث عن مئات الآلاف من الأشخاص المحتجزين في هذه المخيمات قررت أخيراً العودة إلى شينجيانغ.

الجزء ٣

أخبار من بلاد التتار

هذه المرة سافرت في سيارتي الخاصة لكن الدخول إلى الصين أصبح أصعب بكثير مما كان عليه قبل ١٥ سنة. حصلت على إذن بالدخول لمدة ستة أشهر، حيث وكالة سياحية صينية مرخصة فقط لديها القدرة على التوقيع على أوراق الدخول الخاصة بي. كان من المفترض أن يقابلنا الدليل على الحدود، وقد تم إرسال رقم هاتفه مسبقاً. إن استدعاء دليل إيغوري من رقم أجنبي كان مستحيلاً، لكن صرامة القوانين الصينية يمكن معاوضتها كالمعتاد بالتصميم على كسرها جزئيا، فقد نصحتني الوكالة ببساطة باستعارة هاتف من حرس الحدود.

يتم استخراج غالبية النفط والغاز الطبيعي الصيني في شينجيانغ، ويتم نقل الوقود من روسيا إلى الصين من خلال المقاطعة، ولكن الأهم من ذلك تم تعيين المنطقة كمحور مركزي في مشروع "حزام واحد، طريق واحد" (يُعرَف كذلك بمشروع طريق الحرير الجديد وهو مشروع اقتصادي صيني ضخم على مستوى العالم)، وهي مبادرة البنية التحتية الصينية العالمية التي تهدف إلى ربط الأسواق في الصين والشرق الأدنى وأوروبا. ونتيجة لهذا كله بدأت تشهد المنطقة المتخلفة تدفقا كبيرا للموارد. ومع وصول شبكة الطرق إلى المعايير الأوروبية بدأت الصين في دعم مشاريع البناء بين جيرانها، حيث ستربط خط سكة حديد جديدة شينجيانغ بقيرغيزستان وأوزبكستان. القطارات لم تبدأ بالعمل بعد لكن الطريق السريع الذي سلكته في رحلاتي السابقة أصبح مغطى الآن بأسفلت محترم.

قرية قيرغيزية بالقرب من الحدود مع شينجيانغ، صيف ٢٠١٨

لم تعد هناك ثكنات على طول الممر الحدودي. بدلاً من جندي نائم وقفت فرقة كاملة في الزي العسكري الحديث على نقطة المراقبة القيرغيزية الجديدة. في عام ٢٠١٤ كان هناك حادث مرور قرب الحدود، حيث لقي ١١ من الإيغور كانوا يعبرون الحدود وأحد حراس موقف السيارات القرغيزي حتفهم. لم يكن مع القتلى أسلحة نارية، ولكن تم العثور على مصحف وبوصلة وسكين وحبل وكفن ضمن ممتلكات كل واحد منهم. اعتبرت الحكومة القيرغيزية واللجنة الصينية هذه المجموعة من المواد بمثابة علامة على نشاط إرهابي؛ ولذلك تقرر أن يتم تعزيز الأمن على طول الحدود.

على الجانب الصيني كان الشيء الجديد الوحيد هو الحاجز الذي يسبق الجندي ذو النظرة الحديدية الذي صور وجوهنا وفحص أرقام جوازات السفر لدينا في جهاز الحاسوب. على بعد ٥٠ متراً بالقرب من الحاجز التالي، قام خمسة جنود بتفتيش سيارتي بعناية. وقاموا بفحص جوازات سفرنا مرة أخرى، والتقطوا مرة أخرى صور الركاب. في غضون الدقائق العشرين التالية مررنا بثلاث نقاط تفتيش أخرى، وتجاوزنا عشر كاميرات فيديو. وبالوصول إلى الحاجز التالي استخدم حارس يلبس قفازات بيضاء هراوته لتوجيهنا إلى مبنى ضخم حديث المظهر مع بوابات تفتح وتغلق أوتوماتيكياً.

كانت مليئة بالماسحات الضوئية وأجهزة الأشعة تحت الحمراء التي ذكرتني بالمعدات الطبية الجديدة اللامعة.

كان دليلنا وهو إيغوري مربوع في ملابس رياضية ينتظرنا هناك. وبابتسامة مذنب اعترف لنا بأن نقاط التفتيش هذه كانت مجرد عملية إحماء، وسنضطر قريباً إلى المرور عبر ثلاث مراحل لإنفاذ الجمارك، تشمل كل مرحلة منها خطوتين إلى أربع خطوات. بالنسبة للبداية نظر حرس الحدود في محتويات جميع هواتفنا، وحذفوا الصور الفوتوغرافية التي التقطت في المنطقة المحايدة خلفنا. أمتعتنا مرت من خلال جهاز الأشعة السينية. تم فحص الكتب والمذكرات بشكل منفصل، و "الحرية في منتصف الليل"، وهو كتاب سميك عن تقسيم الهند وباكستان تسبب في ذعر خاص. وكان على الحراس الاتصال بقادتهم من خلال جهاز اتصال لاسلكي، وفي النهاية قرروا أن كلمة "الحرية" لا يمكن أن تكون سبباً للمصادرة.

بعد ذلك قادوا سيارتنا إلى صندوق لفحص الأشعة السينية، ولكن لأن اللقطات الناتجة لا يمكن فحصها هناك، فبدلاً من ذلك كان يجب إرسالها إلى قسم التحليل في أورومشي على بعد ٩٣٠ ميلًا منا، انتظرنا لمدة ساعة قبل تلقي رد. كانت الصور منخفضة الجودة، فكان يجب فحص السيارة ثلاث مرات في الإجمالي. في كل مرة وبفضل قوة أشعة الأشعة السينية في الصندوق تم تشغيل كاشف الإشعاع، وأطلقت صفارة إنذار صفيراً ممتداً، ولكن لم يعره أحد أي اهتمام.

بعد الفحص الجمركي بدأ فحص عسكري، حيث قام أشخاص يرتدون الزي العسكري بتوصيل جهاز خاص إلى جميع أجهزة الحاسوب لدينا، يقوم الجهاز بمسح مقاطع الفيديو والصور وقوائم الاتصال والملفات النصية. بحثوا عن الخرائط والوجوه والأسماء. لم يستطع الجهاز – المنقوش عليه صائد الجوالات على علبته الراتنجية – الوصول إلى دفتر الملاحظات القديم، وتم فحص صوري يدوياً. كنت قلقا لأن حاسوبي يحتوي على صور لأصدقائي الإيغوريين القدماء، لكن الجنود عملوا بشكل غير متقن ولم يعثروا على أي منهم ولا على أرشيف الصور التبتية. رغم ذلك فكرت للحظة

مرعوباً: في كل السنوات التي قضيتها في الصين، لم أكن لأتعامل أبداً مع أي شيء من هذا القبيل.

كان الجنود قد أخذوا هواتف من السياح الذين كانوا يخضعون للفحص بالقرب منا وبدأوا في تنزيل تطبيق خاص يسمى JingWang Weishi يستخدم في شينجيانغ لمراقبة السكان المسلمين. ترسل JingWang للشرطة رقم تعريف الجهاز وطرازه ورقم هاتف صاحبه، ومن بعدها تراقب جميع المعلومات التي تمر عبر الهاتف، وتحذر المستخدم عندما يجد محتوى ترى الحكومة أنه خطير. كنت قد قرأت عن هذا التطبيق من قبل ولكن كنت أعتقد أن وجوده إشاعة كاذبة. بعد خمس ساعات على الحدود علمت بالفعل أن تثبيت التطبيق أصبح إلزامياً لكل الإيغوريين في شينجيانغ. تمكنت من إخفاء هاتفي الخلوي عندما أتت اللحظة المناسبة. بعد الفحص العسكري قيل لنا بوجود محطة مراقبة الجوازات التي تقع على بعد ٨٥ ميلا داخل البلاد سنصل إليها.

خريطة تركستان الشرقية والأراضي المحيطة بها

لم يكن من الممكن التعرف على الطريق، فقد شق الطريق السريع الجديد طريقه عبر التلال الرملية، داخلاً على نحو منتظم في الأنفاق وعابراً الأنهار على جسور من نوع لم يسبق له مثيل في آسيا. من الغريب أنه لم يكن هناك أي حركة مرور عليها، ولكن في لحظة من اللحظات أحاطت سيارتنا الجمال فجأة، هذه الجمال الفروية ذات السنامين هي سليل الجمال التي حملت على أكتافها طريق الحرير. كانت أعدادها هائلة وارتفعت فوق السيارة مثل الروبوتات في فلم حرب النجوم. هرولت قليلاً على الطريق السريع قافزة بسهولة فوق الحواجز المعدنية الطويلة التي تحيط بها، وعادوا إلى الصحراء في الجري. في الصحراء تجولوا، يبدو أن شينجيانغ لم تتغير على الإطلاق، فقد بقيت بحاراً لا حدود لها من الكثبان الرملية والبحيرات المتنقلة والقمم الثلجية في الأفق وهدير الأنهار المخبأة في الأودية الضيقة العميقة. وكما كان الأمر من قبل كانت كل رحلة على الطريق السريع واعدة بالمغامرات، وكان لدي الرغبة في الابتعاد عن الطريق والانقضاض في الدوائر بين التلال الرملية، ويفضل أن يكون ذلك دون الحاجة إلى ختم آخر على جواز سفري مسبقاً.

في هذه الرحلة كان هذا الشيء مستحيلاً. كل بضعة أميال سجلت الكاميرا كل حركة تجري. كان لكل واحد منها عين واحدة فقط، لكنها غالباً ما تُنظَم في مجموعات من ثلاثة كاميرات إلى خمسة. لا تسجّل الكاميرات أرقام لوحة السيارة فحسب بل أيضاً وجه سائقها. في الليل يتم تسليط الأضواء من فوق عدسات الكاميرا، حيث تسبب للسائقين العمى أكثر من المصابيح الأمامية للسيارات القادمة بشكل معاكس. وعندما مررنا من نقطة التفتيش أخرى، حاولت أن أحمي عيني بيدي في محاولة لإلقاء نظرة على الطريق. لم تذهب هذه الإيماءة دون أن يلاحظها أحد، فالمصابيح الأربعة للكاميرات جميعها على الفور سلطت بسلسلة من الأضواء القوية علينا.

تم سد الطريق كل ١٥ ميل أو أكثر من ذلك بواسطة حواجز فولاذية ثقيلة وشرائط شوكية قادرة على إيقاف دبابة. امتدت طوابير طويلة من ركاب حافلات الإيغور من خوانق مقصورات مجهزة بآلات مسح للوجه ثم إلى نوافذ صغيرة حيث تمت مقارنة نتائج الفحص ببطاقة هوية بلاستيكية.

وطلب من العديد من الركاب سحب تطبيق Mobile Hunter على هواتفهم المحمولة أو إدخال كلمات السر الخاصة بهم وببساطة تسليم الهواتف إلى الشرطة. يصطف الناس بشكل عرضي كما لو كانت قوة العادة، وفي كل نقطة تفتيش كانت مجموعة من تلك الكاميرات المعلقة تراقبهم من السقف. لقد لاحظت أن الرجال المسنين فقط لديهم لحى في الوقت الحاضر.

الجزء الرابع

ديزني لاند

قبل ثلاث سنوات أعلنت الحكومة الصينية أن أنظمة المراقبة للدوائر التلفزيونية الخاصة والمملوكة للدولة التي تستخدم التعرف على الوجه سيتم توحيدها في قاعدة بيانات مشتركة تضم جميع السكان بحلول عام ٢٠٢٠.

تم اختيار شينجيانغ – التي كانت أيضاً موقع أول تجارب الأسلحة النووية الصينية – مرة أخرى كموقع لتجربة رائدة. هذا هو المكان الذي توجد فيه الغالبية العظمى من ٢٠ مليون كاميرا دوائر تلفزيونية في العمل في البلاد. وقد أكدت مصادر رسمية هذه الأعداد المدهشة الظاهرة حتى للعيان. **بحلول عام ٢٠١٦ تجاوز الإنفاق الحكومي الصيني على الأمن الداخلي الإنفاق على الدفاع الخارجي بنسبة ١٣ في المائة. بين سنتي ٢٠١٤ و٢٠١٦ أنفقت شينجيانغ على المراقبة بمقدار ضعف نفقات بقية المناطق الصينية. في عام ٢٠١٧ أصبح الإنفاق بقدر ٣ أضعاف.**

يمكن للشرطة الصينية الآن العثور على أي مشتبه به من ضمن حشود إذا تطابق ملامح وجهه مع البيانات الموجودة في قاعدة البيانات المركزية الضخمة للبلاد واعتقاله، كل ذلك في غضون سبع دقائق أو أقل.

بعد إدخال نظام المراقبة هذا بنجاح في شينجيانغ تحركت السلطات الصينية لتصدير تقنيتها الخارقة. قبل عامين شركة CEIEC وهي شركة بنية تحتية للمراقبة مملوكة للحكومة الصينية،

افتتحت أبوابها في الإكوادور. وقدمت الصين وهي أكبر مستورد للنفط الإكوادوري ملايين الدولارات من القروض لهذا المشروع الذي سيشرف على تركيب كاميرات أمنية في حوالي ٢٤ مقاطعة في الإكوادور. في يناير ٢٠١٨ ذكرت وكالة أنباء شينخوا أن الجريمة في الإكوادور قد انخفضت بنسبة ١١.٨ في المئة بفضل النظام الجديد. وكجزء من الاتفاقية ستقوم CEIEC أيضًا بإدخال نظام تحديد الموقع الجغرافي قادر على تتبع الهواتف المحمولة للمواطنين. ظهرت فروع CEIEC في كوبا والبرازيل وبوليفيا وبيرو، وأنشأت الشركة نظام الرقابة على الإنترنت لحكومة أوغندا في محاولاتها المستمرة للتوسع في أفريقيا. على موقع CEIEC تظهر وكالة واحدة فقط للشركة تحت صفحة بعنوان "أوروبا". وهي تقع في موسكو.

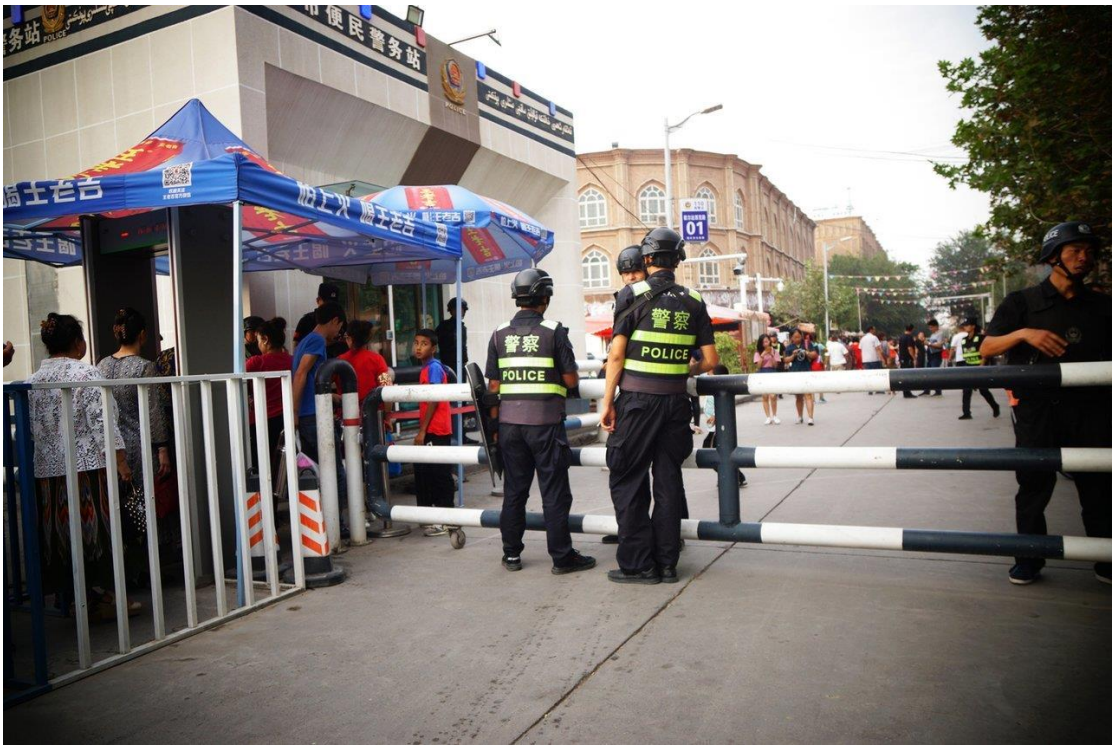

نقطه تفتيش عند مدخل البلدة القديمة الإيغورية في كاشغر. أخذت هذا وكل صور فوتوغرافية اللاحقة في صيف ٢٠١٨.

مبني إيغوري قديم ومصان جيداً في مركز المدينة التاريخي

نقطه تفتيش عبر بصمة العين عند مدخل سوبرماركت في كاشغر

داخل شينجيانغ نفسها نظام مراقبة الفيديو الجديد لا حد له. في السنة الأولى التي تولى فيها تشين كوانجو السلطة تم إضافة ١٠٠٠٠ ضابط جديد إلى قوة الشرطة، ولا يزال عدد ضباط فرض القانون في ارتفاع (غالباً ما يتم اختيار الإيغور أنفسهم للرتب الدنيا). وفي إحدى المرات شاهدت جلسة تدريب للشرطة في موقع بالقرب من مدخل كاشغر. سار نحو ٢٠ رجلاً وامرأة جيئةً وذهاباً من نقطة إلى أخرى، محاولين بوضوح محاصرة حشد غير مرئي من الناس. لم يبد المجندون الجدد مرعبين، ولكن لا يمكن قول الشيء نفسه عن أسلحتهم.

فقط القادة الصينيون كانوا يمتلكون مدافع رشاشة. كان الإيغور مسلحين بالرماح التي كانت أذرعها من البلاستيك المقوّى وشفراتها من الفولاذ، وهراوات طويلة كانت كبيرة جداً بحيث لا يمكن حملها إلا بيدين، وأجسام تشبه النير القديمة (أخشاب تربط على رقاب الثيران لربطها بالمحراث) التي يمكن لفها حول عنق الخصم.

كنت قد رأيت نيراً مماثلة في التبت، حيث كان من المفترض أن يمنع الناس من إشعال النار في أنفسهم. مع شبك النير حول رقبة اللاما (المعلم البوذي التبتي) يتمكن ضابط الشرطة من شل حركته من مسافة آمنة. في شينجيانغ كان هناك نموذج مختلف، فالأجزاء الخشبية السابقة من هذه الأداة يتم استبدالها بقطع مصنوعة من البلاستيك المقوّى، وكان بريق نقاط الصدمات الكهربائية مشاهداً على الحلقة نفسها. وقد تم تركيب أجهزة صادمة مماثلة على الدروع التي يأخذها ضباط الشرطة معهم كلما قاموا بدوريات في الأماكن العامة. تم تقسيم الجزء السفلي من كل درع بواسطة فتحة مسننة تبدو مخيفة من الواضح أنها كانت مخصصة أيضًا لرقبة ضحيتها.

تمكنت من إدخال سيارتي وتلقيت طابعاً يؤكد على دخولي للمنطقة فقط في صباح اليوم التالي. لقد أمضيت حوالي ٢٦ ساعة في الزحمة الكبيرة في عبور الحدود. في النصف الثاني من اليوم التالي وصلت أخيراً إلى كاشغر، أو على نحو أدق في المدينة الجديدة التي استقرت فيها حيث كان كانت العاصمة الباهرة سابقا، والتي كنت أتوق للعودة إليها لسنوات عديدة.

لم تتغير العمارة العامة للمدن الصينية منذ القرن السابع قبل الميلاد، فسوف تجد دائمًا شبكة من الأحياء المستطيلة المتماثلة تمتد من الشمال إلى الجنوب. من المستحيل تحويل الفوضى الحادة لأزقة الإيغور الضيقة إلى أي شيء يتوافق مع هذا النموذج. لقد حارب حضريون صينيون بنية كاشغر القديمة منذ عقود، لكنني لم أستطع حتى تخمين ما يريدون تحويله إليه. لم تعد الأزقة المظلمة والجدران المتهدمة والمساجد ذات الطوب الرملي موجودة. لكن في أماكنهم لا تقف ناطحات السحاب الصينية ولكن صدمة في نطاق مفهومها بحجم الصدمة التي تلقيناها من فكرة مدينة ديزني لاند.

حوّل الصينيون هذه الواحة القديمة إلى مدينة جديدة ذات مظهر مريح، محاولين بكل قوتهم خلق مظهر لطريقة قديمة للحياة. أصبحت الأزقة الضيقة طرقاً واسعةً يمكن عبورها بسهولة بواسطة سيارة إطفاء – أو سيارة مدرعة. يرتبط كل منزل بمياه جارية ونظام صرف صحي مركزي. لكن روح المكان اختفت تماماً مثلما اختفت الرائحة من المطابخ الصغيرة في المدينة بعد أن تم توصيل جميع منازلها بخطوط الغاز. أما بالنسبة للبيوت نفسها تبقى الأبواب المنحوتة فقط لمنحهم لمسة من الأصالة. البنايات الجديدة تذكر بعمارة الإيغور القديمة، لكن الجدران المطلية تبدو بطريقة أو بأخرى وهمية. لا يمكن مقارنة أناقة النوافذ المقطوعة بأدوات آلية مع أسلافها المختفية، تماماً كما أن البلاط الجديد لا يمكن أبداً أن يحل محل الرصيف القديم.

المعالم السياحية في الساحة خارج المسجد المركزي في كاشغر

سوق المدينة

حرفي معدني في السوق في كاشغر

إلى حد بعيد كانت أكبر خسارة هي اختفاء حياة شارع كاشغر القديمة. اختفى كل من الحدادين والباعة المتجولين، وكذلك النجارون الذين كانوا ينحتون المزهريات من القرع على جانب الطريق والباعة المتجولين والعربات التي تجرها الحمير التي لعبت دور سيارات الأجرة في المدينة. يجلس المسنون لابسي الطاقيات على طول الشوارع المحفوفة بالأزهار ويشربون الشاي من إناء خزفي بهدوء مثلما كانوا دائماً، ولكن تغير المنظر من حولهم، والسائحون الصينيون الذين يلتقطون صورهم يفوق عدد الرجال أنفسهم. في سوق المواد الغذائية الذي بقي في موقعه السابق، لا يزال الناس يقايضون الشعرية ورؤوس الخرفان، لكن المشترين الآن جميعهم صينيون، وأكمام الباعة الإيغور الآن مكتوبة عليها بنص أصفر على رقعة حمراء تشهد على حقيقة أن مرتديها قد حصل على ترخيص حكومي.

حاولت العثور على معارفي القدامى، لكنني لم أتمكن حتى من العثور على المنازل التي كانوا يعيشون فيها في ذلك الوقت. بدلاً من ذلك عندما نظرت في أي اتجاه على الإطلاق، استطعت أن أرى مخفر شرطة محاط بأسلاك شائكة. توجد كاميرات الدوائر التلفزيونية المغلقة في كل مكان:

على أسطح المنازل، وعلى الأقواس المثبتة على جدران المباني، ومصابيح الشوارع، وعلى رفوف معدنية مثبتة خصيصاً في الشوارع لغرض واضح وهو إيواء الكاميرات. تنقسم المدينة إلى مناطق مربعة، ومن أجل العبور من حي إلى آخر يجب على كل إيغوري أن يعرض الهوية البلاستيكية ويسلم أي كيس أو حقيبة ليتم تفتيشها، ويخضع لفحص حدقة العين، وفي بعض الحالات يسلم الهاتف المحمول للتفتيش. نفس الإجراء ينتظرهم في البنوك وفي المستشفيات وفي المتاجر الكبرى، وفي الممرات السفلية تحت الأرض. تقوم السيارات المدرعة بدوريات في الشوارع إلى جانب فرق تتألف من متطوعي الإيغور. توقف المارة بشكل دوري للتحقق من هوياتهم. بعد ملاحظة أني قمت بتصوير ضابط شرطة أجبرني ثلاثة من هؤلاء المتطوعين على حذف الصورة وتابعنا لبقية المساء دون بذل أي محاولة لإخفاء جهودهم.

تمكنت من العثور على اثنين من المساجد الباقية، لكن الأقفال كانت مغلقة أبوابها القديمة. ليس بعيداً عن المدرسة التي كانت مغلقة أيضاً جلس تاجر الفراء عند تقاطع لابساً ثوباً تقليدياً وقبعة إيغورية تراثية. كان كل من الفراء والقبعة مصنوعة من البرونز. يتم بيع قبعات الفراء الحقيقية في محلات بيع التذكارات في المدينة، ولكن أصبح من المستحيل العثور على الفراء الحقيقي. كما اختفت السكاكين القديمة الرائعة التي زينت المدينة على أحزمة الناس وأكشاك السوق. عندما حييت بعض الباعة ونطقت كلمة "باشية" تراجعوا ولم يتمكن سوى تاجر تحف واحد من العثور على حقيبة سكين كبيرة في رفه. في داخلها كان هناك العديد من مقابض السكاكين القديمة الفاخرة، لكن تم فصل الشفرات نفسها. حتى عند شراء سكاكين المطبخ اليومية فإن الإيغور ملزمون الآن بوسم النصل برمز استجابة سريعة QR محفور بالليزر يحدد مالك السكين. في مدينة أقسو يتم ربط السكاكين في مطابخ المطعم بالجدران بالسلاسل.

أحد سكان الإيغور في كاشغر يحمل بطاقة هوية. فقط أولئك الذين يحملون هذه البطاقات الخاصة لهم الحق في التحدث مع الأجانب.

المدرسة الباقية في كاشغر

على بعد أمتار قليلة من المتجر الذي كان يتعامل مع هذه القطع القديمة، كان هناك تنور حيث كان الناس يخبزون الخبز المفرود الألذ في المدينة. تعرفت على المكان لأنه تم تزيينه أيضاً بنصب تذكاري ضخم من البرونز، وهو تمثال بالحجم البشري يصور الخبز والخباز. بالقرب من التنور البرونزي التقطت مجموعة من السائحين صوراً فوتوغرافية.

الجزء الخامس

الرجل منخفض الدرجات

في كاشغر لم يتم القضاء على الثقافة المادية القديمة فحسب، بل تم القضاء على التاريخ نفسه. بعد بضعة أيام في المدينة تحدثت مع شاب، وبعد سؤالين أو ثلاثة مني قام بإماءة بالكاد لاحظتها للجلوس حتى لا تستطيع الكاميرات رؤية أي منا. أردت أن أعرف ما إذا كان الناس هنا لا يزالون يتذكرون جمهورية تركستان الشرقية الأولى[٢] والدور الذي لعبته القوات السوفيتية في قمعها. جلبت استفساراتي إحياء مفاجئ لذكريات، فكما اتضح هو متخصص في التاريخ.

بعد أن تناولت (أزحت) الشاي الأخضر الذي لا يزال يُوزَع مجاناً في معظم أنحاء كاشغر، همس أحمد فجأة: "لا يزال لدي بعض الكتب المدرسية القديمة في منزلي التي لديها قصص عن هؤلاء الناس".

بعد أن توصلت إلى طريقة للنظر إلى هذه الكتب القديمة دون تعريض سلامة مالكها للخطر، أصبح من الواضح أن أقدم الكتب كانت قد نشرت منذ أكثر من ١٠ سنوات بقليل. وأوضح أحمد بأن "كل الكتب المدرسية المنشورة قبل عام ٢٠٠٩ تمت مصادرتها قبل أكثر من عام، لقد ذهبوا من بيت إلى بيت وأخذوا كل ما لم نتمكن من حرقه بأنفسنا". لقد تمكن من إخفاء كتابين من الكتب المدرسية التي كان قد استخدمها في الجامعة، لكنه اضطر إلى إحراق الكتب القديمة بالفعل، لأن إبقائها يعرض مقتنيها لعقوبة تصل إلى سبع سنوات في معسكر الاعتقال.

الفرق الجديدة من "المواطنين النشطين" التي تتكون عادة من ضباط الشرطة أو أعضاء الحزب الشيوعي إلى جانب واحد من الإيغور على الأقل أحدثت تغيراً آخر في حياة شينجيانغ. يزورون بانتظام عائلات الإيغور لكي يسألوا كما قال لي صديقي الجديد "أسئلة غريبة"، وتبحث في المنازل عن الكتب الممنوعة وغيرها من الأشياء. يمكن أن تستمر عمليات البحث هذه عدة ساعات أو حتى عدة أيام. وقال أحمد: "إنهم يأتون عندما يكون ذلك مناسبًا لهم ويأتون في أي وقت على الإطلاق. قبل حوالي عام بدأوا يتحدثون عن الإسلام أكثر فأكثر. يسألون إذا قرأنا القرآن. ومن ثم قبل حوالي عام عندما أخذوا الكتب وبدأ الأشخاص الذين نعرفهم في الاختفاء، أصبح من الواضح أن الكثير من هذا كان له علاقة بنقاطنا ".

تم الإعلان عن نظام نقاط الولاء، والذي يطلق عليه رسميا "نظام الائتمان (تقييم) الاجتماعي" في الصين قبل أربع سنوات. لا أحد يعرف بالضبط كيفية عمل النظام، ولكن من المعروف أن تقييمات الأشخاص يتم حسابها باستخدام مجموعة المعلومات الكاملة التي تجمعها الحكومة حول مواطنيها. يمكن أن يؤثر الدين المالي والمخالفات المرورية والسلوكيات المستهجنة عبر الإنترنت (بما في ذلك "التسوق الضار") والتدخين في الأماكن العامة على درجة الشخص. يمكن للمرء كسب نقاط من خلال التبرع بالدم أو التطوع أو كتابة قصيدة للحزب الشيوعي. لكن من السهل أيضا أن يخسروا نقاطاً، فلعب الكثير من ألعاب الفيديو أو زيارة المسجد في كثير من الأحيان يكفي. تؤخذ في الاعتبار أيضاً الزيارات إلى المناطق غير المستقرة، وكذلك المحادثات مع الأشخاص الغير مرغوبين التي يتم تسجيلها في فيديو المراقبة.

في وسط المدينة القديمة في كاشغر، منظر الساحة من جهة المسجد الرئيسي

شارع في الجزء الجديد من المدينة

يمكن للشخص الذي يحمل عدداً كبيراً من النقاط استئجار غرفة في فندق دون إيداع، والحصول على خصومات على الخدمات العامة، ودفع فائدة أقل في البنك. قد يجد شخص ما لديه عدد أقل من النقاط صعوبة في العثور على وظيفة أو استئجار شقة. وبينما يستمر المواطنون الصينيون في فقدان النقاط، فإن مشاكلهم تصبح أكثر خطورة، فحرية التنقل تصبح محدودة، ولا يمكن الوصول إلى المتاجر الجيدة، كما تحظر عليه المواقع الإعلامية الاجتماعية. تم الإبلاغ عن حالات تم فيها إبعاد الأطفال عن المدارس المرغوبة بسبب انخفاض نقاط آبائهم. سيبدأ النظام بالعمل بكامل قوته عام ٢٠٢٠، ولكن حتى الآن ملايين الناس غير قادرين على شراء تذاكر ركوب القطار المحلي بسبب انخفاض درجاتهم.

في شينجيانغ حيث يخضع كل مقيم باستمرار للمراقبة يكتسب هذا الكابوس المستقبلي بسرعة صفات المدينة الفاسدة (عكس فلسفة المدينة الفاضلة وتدعى دستوبيا) اللعينة. يقوم نظام الذكاء الاصطناعي الذي يحلل البيانات الشخصية عن الناس بتقسيم المجتمع إلى مواطنين "آمنين" و "متوسطين" و "خطرين". تؤخذ بعين الاعتبار العمر والدين والإدانات السابقة والاتصال بالأجانب. من المحتمل جداً أن تؤثر عينات من الحمض النووي على نتائج المقيمين في المستقبل القريب أيضاً، وكذلك إذا لم يكونوا جزءاً من النظام حالياً.

في سبتمبر / أيلول ٢٠١٦ تم إصدار أولى الدعوات المفتوحة عبر الإنترنت من أجل إنتاج مجموعات التنميط الجيني لاستخدام الشرطة في الصين، وبعد شهرين فقط أعلنت هيومن رايتس ووتش أن أخذ عينات من الحمض النووي أصبح إلزامياً في شينجيانغ لجميع الذين يحصلون على جواز سفر جديد. يتم جمع العينات في المدارس وأماكن العمل، ويمكن لضباط الشرطة أيضا الدخول منازل الناس لأخذها. ويتحدث جميع أولئك الذين فروا من البلاد تقريباً عن تهديدات لأقاربهم، حيث أن أخذ عينات الحمض النووي على أوسع نطاق يفتح المجال أمام إمكانيات واسعة جداً أمام السلطات لمراقبة أقارب الذين يدينونهم.

كان أحمد متأكداً تماماً من أن كل الإيغور يفقدون عشرات النقاط فقط بسبب عرقيتهم، كما هو محدد جزئياً باختبار الحمض النووي (وقد أثبتت مصادر الأخبار الغربية ذلك أيضاً). أعطى أحمد مثل الملايين الآخرين عينات من اللعاب والدم أثناء الفحص الطبي المجاني الذي نظمته الحكومة.

كرر أحمد تكراراً ومراراً: "لا توجد طريقة لفهم هذا" مديناً هذا الأمر. كل هذا بدأ بجدية فقط هذا العام. أنت تركب دراجة بخارية بدون خوذة وتخسر النقاط. ركبت مع شخصين بدلاً من واحد فنفس الشيء. إذا قمت بزيارة أحد الشوارع حيث يعيش "المتطرفون" في كثير من الأحيان تنخفض درجاتك مرة أخرى ويرسلونك إلى السجن. هل تصادف أن تقف بجانب الشخص الخطأ أمام الكاميرا؟ من الأفضل أن تكون مستعدًا للإجابة على مجموعة كبيرة من الأسئلة. لماذا اتصلت بهذا الرقم؟ لماذا رأيناك في الكاميرا مع فلان وفلان؟ ويجب أن يكون لديك تفسير جيد ".

وبينما كنا نتحدث تجمعت مجموعة من النساء يرتدين قميصا أبيض اللون بما يشبه الزي الموحد في الميدان القريب. جلسوا على الكراسي التي وضعت هناك مسبقا أمام السبورة الكبيرة مكتوب عليها خط طويل من المقاطع الصينية. بدأ درس صيني إلزامي؛ فهناك دروس مماثلة تحدث في جميع أنحاء المنطقة، كما يؤثر حضور الدروس على نتائج ولاء المقيمين. لاحظت مجموعة صغيرة من موظفي الخدمة المدنية ذوي إشارات حمراء على أكمامهم يراقبون الدرس، وبمجرد ظهورهم غير أحمد فوراً موضوع حديثنا.

درس لغة صينية في شينجيانغ

لما افترقنا عرضت على أحمد أن يأخذ عنواني (رقمي). كان من الواضح أنه لن يكون من المجدي بالنسبة لي محاولة الكتابة له أولاً.

"شكرًا لك، لكنني لست بحاجة إلى عنوان. [إذا عثروا عليه] فهذا سبب آخر يجعلهم يحققون معي، سيقولون من هو هذا الشخص؟ وما الذي تحدثت عنه معه؟ "في مرحلة ما سينتهي كل هذا، وسنلتقي مرة أخرى حتى بدون عنوان".

لم أكن متأكدا مما يعنيه بكلماته.

تركني أحمد على المقعد جالساً، ذاهباً نحو ممر للمشاة. توقف على الزاوية، فمثل كل الإيغور كان عليه أن يخضع لعملية فحص في كل مرة يعبر فيها من قطاع في المدينة إلى قطاع آخر.

الجزء ٦

إعادة التأهيل

في فبراير ٢٠١٨ استطاعت صحيفة فورين بولسي مقابلة طالب من الإيغور يدرس في الولايات المتحدة. فضل أن يُطلِق على نفسه اسم إيمان. وقال إنه في العام السابق عاد إلى الصين خلال فترة انقطاع بين الفصلين الدراسيين فقط ليتم إلقاء القبض عليه في بكين قبل أن يغادر طائرته. على مدار الأيام التسعة التالية تم استجوابه في سجن ببكين. ثم تم نقله مقيداً بالأصفاد إلى شينجيانغ إلى "معسكر إعادة تأهيل".

تمت إعادة تثقيف إيمان في زنزانة حيث تم احتجازه مع ١٩ من الإيغور آخرين. يسير السجناء في زنزانتهم وهم يرددون شعار "التدريب الجاد، والتعلم بحماس"، وشاهدوا أفلاماً دعائية لساعات. خلال استراحة ما بعد الغداء يُسمح للسجناء بالجلوس لبعض الوقت على أسرتهم الخشبية، ومن ثم تستمر مسيراتهم ومشاهدهم الدعائية حتى العشاء. وصادق إيمان زميل في السجن عمره ٦٠ عاما اتهم بالوعظ بالقرآن في الرسائل التي أرسلها إلى ابنته عبر مراسلة عبر الإنترنت. الرجل تلقى حكماً بالسجن لمدة سبع سنوات. كان إيمان أكثر حظاً، فبعد ١٧ يوماً أُطلق سراحه، لكن قضاء فترته في المخيم جعلت الكاميرات في الشوارع تتعرف عليه، وبدأ الناس يرفضون صعوده إلى وسائل النقل العام ودخوله إلى محلات السوبر ماركت المحلية. في النهاية تمكن من الحصول على إذن لمواصلة دراسته في الولايات المتحدة، لكن حذره ضابط الشرطة بانه لن يتناسوا ما فعل وقالوا له: "سيبقى أقاربك هنا، ونحن كذلك".

يقوم الصحفيون بالإبلاغ عن الاعتقالات والأحكام بالسجن الصادرة على الإيغور الصينيين على مدار العقد الماضي أو نحو ذلك. في عام ٢٠٠٩ تلقى اثنين من الصحفيين عقوبة بالسجن لمدة ١٣ سنة "للقيام بمحاولات الإخلال بالسلامة العامة". وفي الوقت نفسه تم اتهام كولميرا أمين التي كانت قد نشرت قصائد للإيغور على شبكة الإنترنت بالتحريض للقيام بالاحتجاجات غير القانونية

وكشف أسرار الدولة. تم الحكم عليها بالسجن مدى الحياة. في عام ٢٠١٠ تلقى صحفي آخر حكماً بالسجن لمدة ١٥ عاما. في عام ٢٠١٤ تلقى كاتب حكماً بالسجن لثمانية أعوام، وتلقى إلهام توهتي وهو أحد أشهر علماء الإيغور حكما بالسجن مدى الحياة "للتحريض للانفصالية"، وتم القبض على سبعة من طلابه معه.

في عام ٢٠١٥ أوقف اللغوي عبد الولي أيوب الذي كان يدرس اللغة الإيغورية في المدارس (دراستها محظورة الآن) في مركز للشرطة مرتين كل يوم، مرة في طريقه إلى العمل ومرة أخرى في طريق عودته. عثرت الشرطة على مقالات تم حفظها على جهاز الحاسوب المحمول كان قد كتبها قبل عدة سنوات في كنساس، ولكن بعد عدة ساعات من الاستجواب تم إطلاق سراحه. تمكن أيوب من الفرار إلى أنقرة وأصبحت قصته معروفة فقط لأنه تمكن من الفرار.

في عام ٢٠١٦ بدأت السلطات باعتقال وسجن المدونين والإداريين في منتديات الإيغور. في عام ٢٠١٧ اختفى الباحث الشهير خايمات غوبور، الذي كان يقود قسم إنتاج الغذاء في شينجيانغ دون أن يترك أثراً، كما حدث للمغني الشعبي عبد الرحيم هييت، الذي سبق أن أشادت به السلطات الصينية ولم تكن أغانيه قد تعرضت للرقابة في السابق. وفي العام نفسه تم اعتقال لاعب كرة قدم يبلغ من العمر ١٩ عاماً سبق له اللعب في فريق الشباب الصيني الوطني في أحد الأسواق. ولأنه لعب في المباريات الدولية فقد اتهم بزيارة بلدان أجنبية.

شرطة بالقرب من جدار مخيم لأعاده التاهيل في شينجيانغ، ٢ نوفمبر ٢٠١٧

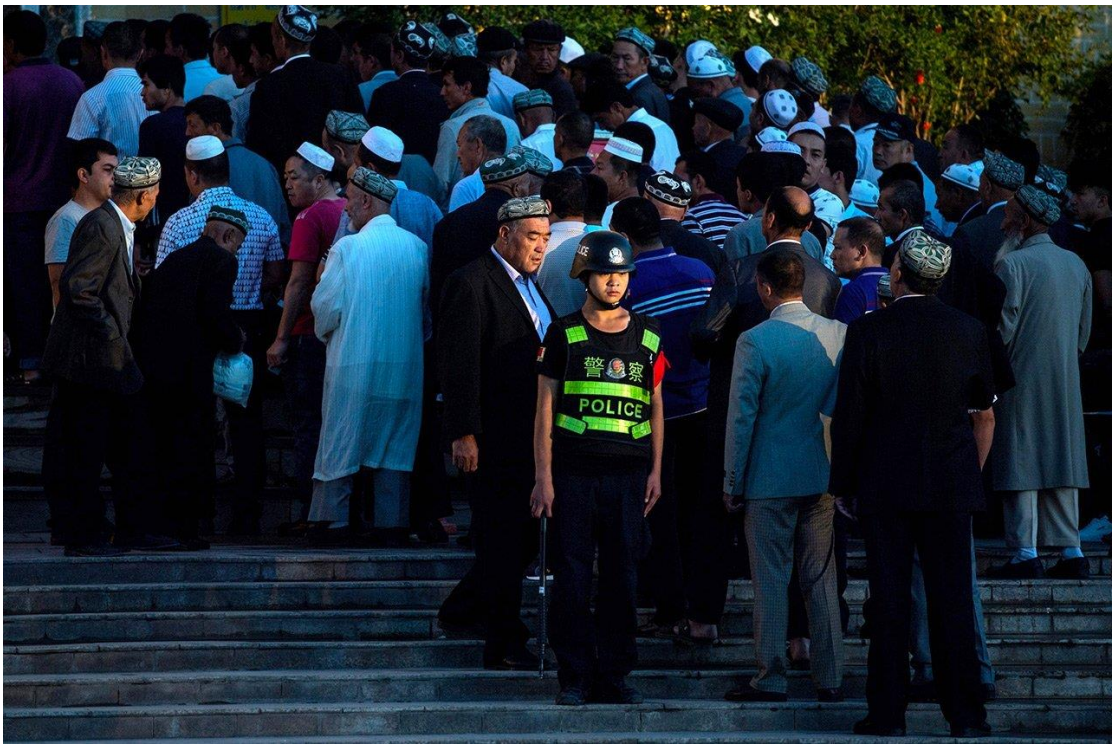

ضابط شرطه صيني خارج مسجد كاشغر المركزي قبيل صلاه الصبح، ٢٦ يونيو ٢٠١٧

في خريف عام ٢٠١٧ عاد كايرات سمرخان إلى مسقط رأسه في شينجيانغ. هاجر سمرخان الكازخي الأصل إلى كازاخستان مع العديد من الأشخاص الآخرين نتيجة الأوضاع قبل عدة سنوات، لكنه عاد لبيع منزله وأرضه. وقد تم استدعاؤه لاستجوابه بمجرد وصوله، تحدث بهذه التفاصيل بعد ذلك لإذاعة الحرية. سُئل عما كان يفعله في كازاخستان وما إذا كان قد "ارتكب نماز" (نماز هو واجب الصلاة الإسلامي خمس مرات في اليوم). واستمر التحقيق ثلاثة أيام، وخلال تلك الفترة بأكملها لم يسمح له الحراس بالنوم.

وحُكم على سمرخان بالسجن لمدة تسعة أشهر في معسكر "إعادة التأهيل". وفي المخيم التقى ثلاثة أنواع من السجناء: مجموعة متهمة بالنشاط الديني المفرط، وثانية أخلت بالسلم العام، والثالثة بالسفر إلى الخارج. وقال إن المخيم الذي سجن فيه كان يضم ٥.٧٠٠ سجين: ٣٠٠٠ من الكازخيين و٢٠٠٠ من الإيغور و٢٠٠ من دونجان (مسلمون صينيون). لقد درسوا جميعاً سجل المؤتمر التاسع عشر لعام ٢٠١٧ للحزب الشيوعي الصيني وذهبوا إلى المحاضرات حيث طلب منهم ألا يكشفوا عن أسرار الدولة، وألا يكونوا مسلمين، وأن لا يقسموا الناس حسب العرق أو الجنسية. كانوا جميعاً يعيشون في حالة من نصف تجويع. وقال سمرخان إنه أطلق سراحه بعد محاولته الانتحار، لكن سُمح له بالعودة إلى أسرته في كازاخستان فقط بعد تدخل وزير الشؤون الخارجية الكازاخستاني من أجله.

في كانون الثاني / يناير ٢٠١٨ وصلت أخبار إلى الصحافة وفاة محمد صالح حاجم البالغ من العمر ٨٢ عاما، أول مترجم للقرآن باللغة الإيغورية. وتوفي بعد مرور ٤٠ يومًا على اعتقاله، رغم أن السبب الدقيق لوفاته غير معروف. ولا تزال ابنته وأقاربه الآخرون الذين اعتُقلوا معه رهن الاحتجاز. في مايو ظهرت الأخبار حول مصير أغنى أربعة أشخاص في كاشغر. حكم عليهم بالسجن لمدة ٤٢ سنة بشكل جماعي "للتطرف الديني". قبل فترة وجيزة تم القبض على رحيل داوود (٥٢ عاما) وهي عالمة أنثروبولوجيا ذات شهرة دولية. حتى ذلك الوقت كانت أبحاثها مدعومة من قبل الحكومة

المركزية. أبقى أقاربها خبر سجنها سراً لمدة ثمانية أشهر على أمل إطلاق سراحها، لكنه لم يحدث ذلك. بدلاً من ذلك انقطعت أخبارها تماماً.

الجزء السابع

قلوب لا تعرف الخوف

عندما عدنا من السوق الليلي في كاشغر، مررنا بالعديد من نقاط التفتيش التابعة للشرطة. لم تكن هناك مشكلة بالنسبة للصينيين والأوروبيين، ولكن كان على الإيغور إظهار أوراقهم وتفحص حدقاتهم. هذه المرة حدث ضجيج عند نقطة التفتيش: ثلاثة من ضباط الشرطة مسلحين كالعادة بالرماح والدروع المزودة بالصواعق الكهربائية اعتقلوا للتو مجموعة من الشباب. كانوا يقودونهم إلى أقرب مركز للشرطة. سار السجناء في طابور واحد، أيديهم على مؤخرة من أعناقهم. وراقبتهم الشرطة من الخلف ومن الجانب، وعندما حاول الشاب الأول فتح باب المركز دون إذن تم إيقاعه على الأرض. جلس البقية القرفصاء من تلقاء أنفسهم ووجوههم إلى الجدار. لم تسمح لهم الشرطة بإنزال أيديهم. بعد دقيقة أو اثنتين وصلت ثلاث سيارات مزودة بالأضواء الوامضة الدوارة، كان هناك رجال يجلسون في داخلها، واختفى طابور السجناء بالسرعة التي تشكل بها. لم يكن هناك أحد يسأل عما حدث ولا يوجد سبب لفعل ذلك أيضاً. يمكن استجواب المجموعة وإخضاعها لمحاضرة إرشادية أو إرسالها إلى المحاكم أو نقلها ببساطة إلى أحد المعسكرات.

على الرغم من أن بكين تنكر رسمياً وجود معسكرات لإعادة التأهيل، إلا أنها ذكرت لأول مرة في وثيقة الحزب الشيوعي في عام ٢٠١٥. وذكرت تلك الوثيقة أنه في "مركز تدريب تثقيفي" في هوتان تم احتجاز ٣٠٠٠ شخص "متأثرين بالتطرف الديني". وبعد عامين صرح موظف بيروقراطي من كاشغر بزلة لسان أن ١٢٠ ألف شخص محتجزون في أربعة مراكز في كاشغر وحدها، وأكبرها يقع في مدرسة إعدادية سابقة. في جميع الاحتمالات الرقم الفعلي أكبر من ذلك بكثير.

لا تعتبر إعادة التأهيل حكماً جنائياً في الصين. لا توجد اتهامات رسمية في هذه الحالات، وبالمثل لا توجد بيانات إحصائية عنها. ومع ذلك فإن نطاق عمليات القمع هذه يمكن رؤيتها حتى من الخارج لأنه يمكن رؤية المخيمات في لقطات الأقمار الصناعية. صفوف من الثكنات محاطة بجدران مزدوجة وأبراج المراقبة تنبثق بلا نهاية في مواقع جديدة، وتتوسع المعسكرات القائمة باستمرار.

إيغوريين في ساحة الشعب في كاشغر بالقرب من تمثال بارتفاع عشرين مترا لماو تسي تونغ، ١٦ أغسطس من ٢٠٠٩

حلل أدريان زينز الباحث الألماني في الكلية الأوروبية للثقافة واللاهوت العقود الحكومية الصينية لمشاريع البناء، ووجد ٧٨ مشروعاً تضم معسكرات لإعادة التأهيل. ووفقًا لبيانات زينز يتم بناء المخيمات على كل ركن تقريبا في شينجيانغ، وفي شهر أبريل من العام الماضي وحده، تم إنفاق ١٠٨ مليون دولار على تطويرها. تشير بعض الأرقام إلى بناء مؤسسات تبلغ مساحتها حوالي ٢٥ فداناً مع ثكنات منفصلة للحراس. كما وجد الباحث العديد من الوظائف الشاغرة لموظفي المعسكر: من المتوقع أن يمتلك المحققون "خبرة في علم النفس الجنائي" و "الخبرة في العمل في الأجهزة الأمنية" و "قلب لا يعرف الخوف".

قبل شهر واحد في جنيف قالت جاي ماكدوغال وهي عضوة في لجنة الأمم المتحدة للقضاء على التمييز العنصري، بأن شينجيانغ هي "شيء يشبه معسكر اعتقال كبير". وقد اقترحت أن هذه "المراكز التحويلية" قد تضم ما يصل إلى مليون شخص. ويعتقد الأمين العام لمؤتمر الإيغور العالمي دولكون عيسى الذي كان حاضرا في ذلك الوقت بأن العدد الفعلي للسجناء قد يصل إلى ثلاثة ملايين، أي ما يقرب من ثلث سكان الإيغور.

وجاء رد صيني رسمي بعد ذلك بثلاثة أيام، عندما أعلن أحد كبار المسؤولين في الحزب أن "جميع الأقليات العرقية في الصين تعيش في حالة من الرضا والسلام، مع الاستفادة الكاملة من حريتهم الدينية" وأنه "لا توجد معسكرات لإعادة التأهيل" في البلاد. حتى أن صحيفة جلوبال تايمز المملوكة للدولة والمنشورة في الصين باللغة الإنجليزية ردت في وقت سابق حيث كتبت: "يجب أن يأتي السلام والاستقرار فوق كل شيء آخر" مضيفة أنه "يمكن استخدام جميع الإجراءات" سعياً لتحقيق هذه الأهداف.

الجزء الثامن

الرحيل

تضمن خط سير الرحلة في شينجيانغ رحلة إلى صحراء تاكلاماكان. كنا نخطط لقضاء بعض الوقت على أنقاض المدن البوذية التي ما زالت بين الرمال، وتشهد على حضارات ما قبل الإسلام في المنطقة. ولكن في اليوم السابق للرحلة مُنع المرشد الذي وافق على أخذنا إلى هناك من مغادرة المدينة. لم يكن تصريح الشرطة الرقائقي الذي يمنح الوصول إلى المنطقة المحظورة كافياً، حيث طلبت السلطات موافقة لجنة الحكم الذاتي في المنطقة. لم يعرف المرشد سبب رفض منحه الإذن هناك، وقلق أكثر حول الأسباب المحتملة لهذا المنع أكثر من فقدان راتبه لهذا اليوم. عرضت وكالة الأسفار لدينا استبداله بدليل آخر، ولكن بحلول ذلك الوقت بدأ الجو يضغط بقوة على أعصابي بحيث قررنا المضي قدماً في مسار الرحلة...إلى باكستان.

كنت قلقا بشأن الصور التي أخفيتها وأكثر قلقاً بشأن محادثتي مع أحمد. كان من المستحيل الاتصال بمعارفي، فجميع مكالماتنا وحركاتنا يتم تعقبها منذ لحظة وصولنا. كما تم منع مغادرة المدينة دون مرافقة. في النهاية بدأت في الذعر. شعرت باستمرار كما لو كان عملاء المخابرات يتبعونني، وبدأت أبتعد عن الناس تماماً كما ابتعد جميع البائعين عني بينما كنت أبحث عن الباشية.

قبل أكثر من عقد بقليل جئت إلى شينجيانغ لأرى الحياة بعيني كما كانت منذ قرون عديدة، إن لم يكن آلاف السنين. الآن ما يمكنك أن تجده هنا هو مستقبل يتجاوز أكثر الخيالات جرأة لجورج أورويل أو إفغيني زامياتين.

في صباح اليوم الأخير اجتمعنا جميعاً في طاشقورغان وهي بلدة أخرى تقع على الفرع الجنوبي من طريق الحرير. التزود بالوقود قبل مغادرتنا تحول إلى عملية معقدة نوعاً ما. في شينجيانغ لا يتم فتح الحواجز المغطاة بالأسلاك الشائكة التي تحيط بكل مضخة وقود إلا بعد أن يقوم السائق بفحص الهوية البلاستيكية، كمية الوقود المشتراة تسجل في نظام الائتمان الاجتماعي العام. لم يكن لدي بطاقة. بعد قدر كبير من التأخير سمح الجنود الذين يحرسون طابور السيارات بدخولنا بعد قبول وثائقي الصينية المؤقتة. على طول الطريق بالقرب من ساحة مفتوحة يقف عدة عشرات من الإيغور مع بعض، وأيديهم على جانبيهم، محاطين بنطاق من ضباط الشرطة. لم يتم اعتقالهم، بل كانوا يستمعون إلى موجز سياسي يومي قبل العمل.

انطلقت بعيداً عن نقطة التفتيش وبدأت في الصعود ببطء عبر منطقة ما وراء قراقم. من بين الخيام القيرغيزية المنتشرة على منحدرات الصحراء جابت الجمال. وبينما كنا نتسلق إلى أعلى تبدل المشهد إلى قطاس (ثيران في آسيا الوسطى) فرائي عبرت بلا مبالاة الطريق أمام كاميرات الدوائر التلفزيونية المغلقة. تحتنا كان صف الناس يتفرق. بعد أن حيوا علم الصين، كان بإمكان عمال الإيغور أن يذهبوا في طرق منفصلة فقط ليجتمعوا مرة أخرى في نفس المكان في الأسبوع التالي.

الهوامش:

١- الإيغور مجموعة عرقية تركية، أكثر من ١٠,٠٠٠,٠٠٠ منهم يقيمون في منطقه شينجيانغ الذاتية الحكم لجمهوريه الصين الشعبية. ويعتنق الإيغور في المقام الأول الإسلام السني.

٢- جمهورية تركستان الشرقية الأولى. تأسست في ١٢ نوفمبر ١٩٣٣ وتم سحقها بجهد مشترك للقوات السوفيتية والصينية بعد أربع سنوات. وعلى الرغم من وجودها القصير، تبقي الجمهورية بالنسبة للكثيرين رمزا لتطلعات الإيغور إلى الاستقلال.